

إشكالية التواصل اللغوي بالجزائر

الأستاذ إبراهيم سعدي

أستاذ بمعهد اللغة والأدب العربي

بجامعة تيزي وزو

1- اللغة كعامل مؤسس للمجتمع

دأب الخطاب اللغوي في الجزائر على تأسيس أطروحته على نوعين رئيسيين من الاعتبارات : اعتبار الحداثة واعتبار الهوية فالخطاب الناطق بالفرنسية يستند بصورة جوهرية على المطلب الأول، بينما الخطاب الناطق بالعربية يؤسس مشروعيته على المطلب الثاني من غير أن ينفي عن نفسه طابع النجاعة، أي الحداثة. أما النظر إلى اللغة بوصفها عنصراً أساسياً للإدماج الاجتماعي للأفراد فقد ظل طرحاً غائبا في هذا النقاش، علماً أن هذا الغياب نلاحظ وجوده منذ القدم في الجزائر. فالملك ماسنيسا الذي سعى إلى تحقيق وحدة المغرب الكبير في القرن الثاني قبل الميلاد قد حرص بالمقابل على أن يتلقى أبناؤه تربية يونانية وعلى أن يعبد النوميديون آلهة يونانية أيضاً. أما ابنه الأكبر مسينيسا الذي خلفه في سيرتاً بعد موته، فقد عاش بين الأدباء والفنانين الإغريق. و كان سيفاكس عدو مسنيسا، يقلد في حياته ملوك اليونان. وفضلاً عن هذا كله، فقد كانت اللاتينية هي لغة الدولة النوميديّة.

وهذه الظاهرة المتمثلة في اعتماد الدولة المحلية على نموذج ثقافي مستعار، تكررت في جميع الممالك البربرية التي عرفها تاريخ الجزائر القديم، سواء تعلق الأمر بتلك الممالك التي ظهرت في نوميديا أو التي قامت في موريطانيا. و كان من نتائج ذلك الحيلولة دون ترقية الأمازيغية إلى لغة مكتوبة مشتركة تساهم في الحد من دور اللهجات البربرية في إعادة إنتاج النظام القبلي المؤسس للتفرقة، وفي الحيلولة دون قيام حضارة راقية على غرار الحضارات التي عرفتها المنطقة، كالحضارة المصرية أو الحضارة اليونانية أو الحضارة الرومانية. كما كان لهذا التغييب للثقافة المحلية في بناء الدولة و في تحقيق وحدة المجتمع أن جعل النخب البربرية المثقفة تستثمر عبقريتها لفائدة ثقافة الغير وحضارته، و بالتالي تساهم في عملية الاندماج مع الآخر، بدل تعزيز الذات الجمعية للأمازيغ. و هكذا لم تجن الثقافة المحلية أي فائدة من عبقرية أغسطينوس والقديس سبريانو وأبوليوس و يوبا الثاني، وغيرهم من المفكرين ذوي الأصل البربري طالـموا أنهم كتبوا بلغة الآخر، لغة المحتل الروماني اللاتينية، مع العلم أن هذه الظاهرة كانت المرجع الذي أسس عليه " لوي برتران" وأتباعه من إيديولوجي الدولة الكولونيالية أسطورة الجزائر اللاتينية من أجل إضفاء الشرعية التاريخية والثقافية على الاستعمار الفرنسي للجزائر.

يتكرر الاتجاه نفسه اليوم في بعض الخطابات الإيديولوجية الجزائرية المعاصرة التي تتميز باستبعاد اللغة كعامل إدماج اجتماعي للأفراد وأساس لبناء الأمة. فنزعة الاندماج مع الآخر ثقافيا و حضاريا

تمثل خلفية الخطاب المؤسس على "العالمية" و"المتوسطة"، وعلى تغليب الجغرافي، أي القرب من أوروبا، على العامل التاريخي الذي يحيل إلى الحضارة العربية محل الفرنسية و في اختيار كتابة الأمازيغية بالأبجدية اللاتينية.

هذه الظاهرة الأخيرة جديرة بشيء من التوضيح ذلك أن هناك من يعتقد أن حروف الكتابة مجرد أشكال عديمة الدلالة في حد ذاتها. وهذا بالطبع غير صحيح، فهي تحتوي على قيمة رمزية وعاطفية وتاريخية وحضارية. فمصطفى أتا ترك لما عزم على إلحاق تركيا بأوروبا فإن إحدى الإجراءات التي اتخذها بهذا الشأن هو تغيير الحروف العربية التي كانت تكتب بها التركية بالأبجدية اللاتينية. و هذا الإجراء لم يكن مجرد إجراء شكلي، بل تعبيراً عن الإرادة في الانفصال من عالم ثقافي وحضاري و تاريخي معين من أجل الانخراط في عالم ثقافي وحضاري آخر. ويمكن أيضاً أن نذكر بهذا الصدد مثال السرب والكروات، فهذان الشعبان يملكان لغة واحدة، لكن العداء القائم بينهما لأسباب دينية (السرب أرثوذكس والكروات كاثوليك)، أدى بهما إلى كتابة لغتهما الواحدة بحروف متميزة، فالسرب يكتبونها بالحروف السيريلية (الرموز الروسية) والكروات بالحروف اللاتينية. و عليه لا يمكن أن يكون اختيار كتابة الأمازيغية بالحروف اللاتينية مجرد إجراء شكلي أو تقني، لا دلالة له. إنه يعبر، حسب رأينا عن إرادة القطيعة، ولو جزئياً، عن الفضاء الحضاري العربي الإسلامي و عن السعي إلى الارتباط بالغرب ثقافياً. و لو تم اختيار حروف تيفيناغ لما كان هناك داع إلى افتراض

الملاحظة الأخيرة. و هذا يكشف من جانب آخر عن عدم توظيف اللغة كأداة دمج وربط بين الأعضاء الذين ينتمون إلى مجموعة وطنية واحدة، إذ لو روعي هذا الجانب لوقع الاختيار على الحروف العربية في كتابة الأمازيغية.

2- في العلاقة بين تشكل الأمم و تشكل اللغات الوطنية :

دور اللغة في نشأة الأمم و إقامة المجتمعات قد ازدادت أهميته نتيجة تراجع الدين في العصر الحديث. فالتأمل في التاريخ الحديث يلاحظ الارتباط بين تشكل الأمم و تشكل اللغات الوطنية. ففي عصر النهضة أفرزت البدايات الأولى للشعور القومي في إيطاليا دعوة دانتي إلى تأسيس لغة وطنية و إلى جعل العامية الإيطالية تقوم بهذا الدور.

وفي فرنسا كان لتوسع النظام الملكي في عهد لوي الخامس على حساب النظام الفيودالي أن أفضى إلى تحول الفرنسية من لغة لا يتجاوز نطاق استعمالها حدود "ليل دي فرانس" إلى لغة مشتركة، أي إلى لغة وطنية للأمة الفرنسية التي كانت في طور التكوين.

وفي ألمانيا أدى انفصال "لوثر" عن كنيسة روما، في القرن السادس عشر، إلى ترجمة الإنجيل للمرة الأولى من اللغة الألمانية. و قد كان ذلك من العوامل التي ساهمت في بلورة الشعور القومي الألماني، و في تحقيق الوحدة الألمانية فيما بعد.

ومن المعلوم، من جهة أخرى، أن تأسيس دولة إسرائيل رافقها اتخاذ اللغة العبرية لغة مشتركة لجميع اليهود الذين استوطنوا أرض فلسطين قادمين من شتى بقاع العالم بلغاتهم المختلفة.

ويدل قيام مؤتمر فرساي (1919) بتقسيم الإمبراطورية النمساوية - المجرية حسب الحدود اللغوية على وجود ارتباط بين الشعور الوطني. و هذا يعني أن البلدان التي لا توجد فيها لغة مشتركة يكون انسجامها الداخلي ضعيفا. بل قد يصل الأمر إلى حد انقسام الدولة على نفسها كما حدث في جزيرة هايتي الكبرى (1844) التي انقسمت إلى دولتين، إحداهما و هي جمهورية هايتي، التي تنتشر فيها فرنسية مهجنة (لغتها الرسمية هي الفرنسية) والثانية هي سان دومينغ حيث تعم إسبانية محلية (لغتها الرسمية هي الإسبانية). ويلاحظ من ناحية أخرى أن انهيار الإيديولوجية الشيوعية قد أدى إلى توحيد الألمانيتين اللتين تشتركان في لغة واحدة، بينما نفس الانهيار للإيديولوجية الشيوعية قد أدى إلى تفكك البلدان التي كانت لا تتمتع بالوحدة اللغوية مثل تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا و الاتحاد السوفياتي.

و يكشف النظام الفدرالي هو كذلك عن الدور الهام للغة في تشكيل المجتمع، فالنظام قد فرضته التعددية اللغوية التي تتميز به بعض البلدان كسويسرا و كندا مثلا. فهذا النظام يقوم على مراعاة الخصوصيات اللغوية في التنظيم الإداري للمجتمع للحيلولة دون تطور هذه الخصوصيات إلى نزاعات ذات طابع استقلالي أو انفصالي أو إلى مصدر للتوتر داخل المجتمع. فالتعددية اللغوية إذن يمكن أن تجد لها إطار المؤسسات الطبيعي في النظام الفدرالي ، أما النظام القائم على مركزية الدولة، كما هو الأمر في الجزائر، فهو يقتضي لغة رسمية واحدة.

و لأهمية اللغة كعنصر إدماج و انسجام داخل المجتمع فان بعض الدول (فرنسا والولايات المتحدة مثلا)، تشترط على كل من يطلب جنسيتها أن يكون متقنا للغتها الوطنية. و لهذا لا نتعجب حين تضع جريدة "لومند" يوم 15 يوليو 1978 في مقال لها حول هذا الموضوع عنوانا تعلن فيه أن : " اللغة هي الجنسية".

3- الازدواجية اللغوية و الصراع الثقافي داخل المجتمع :

لا نجد في بلادنا مثل هذا الوعي بالوظيفة الاستراتيجية للغة مع أن الجزائر هي أكثر البلدان معاناة من مشاكل التواصل اللغوي. هذه المشاكل ناتجة عن كون بروز الجزائر كأمة لم يرافقه تبلور العربية كلغة وطنية جزائرية تعرض ممثلوها، مثل سائر الجزائريين للاستلاب الثقافي، لم يأخذوا بعين الاعتبار اللغة كمكون أساسي لهذه الوطنية. وينبغي التوضيح أن المشكلة لا تتمثل في العلاقة بين العربية والأمازيغية، فارتباط هذه الأخيرة بالشخصية الجزائرية يعطي لها نفس القدر من الشرعية رغم اختلاف الأداء الحضاري و الثقافي لأسباب تاريخية.

إن الثنائية (عربية / فرنسية) المنجّرة عن تدمير البنية الثقافية الأصلية للمجتمع الجزائري من جراء الوجود الكولونيالي هي أساس المشكلة اللغوية المعيشة منذ الاستقلال. أنها سبب ظهور انقسام اجتماعي على أساس ثقافي لا سيما على مستوى النخب. فالانقسام الثقافي المتأني من ممارسة لغوية قائمة على ثنائية تنازعيه أدى إلى اهتزاز المرجعيات المشتركة للمجتمع. لهذا السبب تقدم الدراسات ذات

الطابع الاستراتيجي الجزائري كمجتمع يعوزه الانسجام إذا ما قيس بالمجتمع التونسي أو الليبي مثلا، لكن ليس صحيحا في آن واحد ذلك الرأي القائل بأن سعي فئة من الجزائريين إلى فرض الفرنسية كلغة مهيمنة في بلدهم ينم عن ضعف الوازع الوطني أو انعدامه.

ففي كثير من الحالات يمكن تفسير ذلك بحقيقة أن الإنسان ليس هو الذي يسيطر على اللغة و يتحكم فيها ، بل العكس هو الصحيح؛ فاللغة هي التي تتحكم فينا و توظفنا وتحرر أفكارنا وعواطفنا وتوجهاتنا.

إذا كان اكتساب اللغات الأجنبية أمر لا جدال فيه، فإنه من الأهمية بمكان التوضيح بأن الغاية من ذلك ليس التواصل بين أهل البلد، لأن وظيفة الإدماج خاصة من خاصيات اللغة أو اللغات الوطنية وحدها. إن إغفال هذا المبدأ هو الذي أدى إلى جعل الفرنسية؛ عوض أن تكون مكسبا أو غنيمة حرب على حد تعبير كاتب ياسين؛ تتحول إلى أداة صراع داخل المجتمع. فاللغة الأجنبية إذا ما استعملت لأداء الوظائف المخولة للغات الوطنية وحدها تتحول إلى أداة توتر اجتماعي أي إلى وسيلة تنتج سوء الانسجام في المجتمع.

4- دفاع عن الدارجة :

أن النظر إلى اللغة باعتبار " الرابط الذي يكوّن المجتمع"، كما يصفها جون لوترز يدي إلى التساؤل عن دور اللغة الدارجة في إطار هذا المنظور. و الواقع أن الدارجة هي الأكثر تداولاً في مختلف جهات الوطن فيما يخص الوظائف الشفوية للغة. و لكونها تتميز

بسهولة الاكتساب، وبالتالي بالقابلية على الانتشار، فقد جعل منها ذلك أداة اتصال مشترك بين الجزائريين. وإذا ما سلمنا بأن الإدماج الاجتماعي هو إحدى وظائف اللغة، فإن هذا الدور تضطلع به الداريجة أساسا فيما يخص المجال الشفوي المعتمد خارج نطاق المؤسسات الرسمية بمختلف أنماطها. لكن هذا يعني أيضا أن وظيفتها التواصلية تقتصر على فضاء التبادل اللغوي العام، أما على مستوى الفضاء الخاص، أي النخبوي، فلا تلعب أي دور، و ذلك حتى كأداة تواصل مع الشعب. فاللغة الداريجة ظلت دوما مقصورة من الخطاب السياسي و الديني والإعلامي، وذلك بالرغم من أنها تعبر عن الخصوصية الجزائرية كلغة الكتابة والعلم والمعرفة، فوظيفتها تقتصر على المبادلات الشفوية أساسا، وهي مبادلات ذات أهمية على أكثر من صعيد، لكنها للأسف مجهولة أو غير معترف بها.

5 - الخلاصة :

إن التفكير في الجزائر كمجتمع و أمة أمر يتطلب ترقية ثقافة الإدماج دون أن يعني ذلك الإقصاء أو الانغلاق على الذات. فالمجتمع المتماسك داخليا هو وحده القادر على التفتح على الآخر في الحقيقة. ثم إن الديمقراطية لا يمكن أن تزدهر إلا في مجتمع يملك مرجعيات ثقافية مشتركة.

المراجع:

Moncel Cohen, Matériaux pour une sociologie langage, T –1
II, Maspéro, P.81

2- ن.م.

3- جون لوتز، الرموز تخلق الإنسان، آفاق المعرفة، مؤلف جماعي،
دار مكتبة الحياة، بيروت، 1962، ص 294.